اسم المادة الدراسية عربي : أدب عصور متأخرة .

اسم المادة الدراسية الانكليزي :Literature of Later Ages

اسم المحاضرة : ابن زيلاق الموصلي (حياته وشعره).

اسم التدريسي : أ. د. محمد عويد محمد الساير .

المستوى الدراسي : الثالث .

الدراستان : الصباحي / المسائي .

الاسبوع : التاسع .

ابن زيلاق الموصلي ٦٠٣- ٦٦٠هـ (حياته وشعره) .

تعد مدينة الموصل واحدة من المدن المشهورة في عمر انها وحضارتها ، وقد صارت تشارك بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة في الازدهار والارتقاء بمدارج العلوم والآداب ، وبرز فيها العشرات من الشعراء أمثال مخلد بن بكار ، والخالديين ، والسري الرفاء ، وابن الدهان ، وابن الأردخل ، وابن دينير ، وابن الحلاوي ، وابن عدلان ، وابن دانيال ... وابن زيلاق الذي نحن بصدد التعريف به ودراسة شعره.

عاش ابن زيلاق في النصف الأول من القرن السابع للهجرة ، الذي يعد من أزهى الحقب في العلوم والآداب ، ولا سيما في عهد أبي الفضائل بدرالدين لؤلؤ بن عبدالله الزيني (ت٦٥٧هـ) الملّقب بالملك الرحيم ، الذي حكم الموصل سبعة وأربعين عاما، وكان مشهورة بتقريب العلماء والأدباء والاحتفاء بهم واكرامهم ، ومما تحمد له أنه طلب من المؤرخ المشهور عز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ) الإسراع في إنجاز كتابه (الكامل في التاريخ) ليحفظه في مكتبة مدرسته التي أنشأها في الموصل ليقف عليها الدارسون، وكذلك كلف محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ للهجرة أن يستنسخ له كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني بخط جميل ، وطلب من عمر بن علي بن المبارك الموصلي (ت٦٣١هـ) أن ينسخ له مقامات الحريري مزينة بصور بديعة الألوان .

وابن زيلاق الموصلي هو محيي الدين يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم الهاشمي ، فهو عربي الأصل ، ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ . ولد في الموصل سنة ٦٠٣ للهجرة ، وواصل منذ الصغر دراسته في علوم اللغة العربية وآدابها، ولما استكمل أدوات هذه الدراسة تولّى وظيفة الإنشاء في الدولة ، وكانت كتاباته فائقة الدقة .

وكان غيوراً على مدينته ، وحينما داهمها التتر سنة ٦٦٠ للهجرة تألم كل الألم وخاف عليها، ووقف بجانب ملِكِه الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ في الدفاع عنها. كان قائد التتر يسمى «اسند اغو»، ولما طال حصار الموصل، وساءت أحوال الناس، وتعذرت الأقوات، طلب الملك الصالح الأمان له ولأهل مدينته، وترددت الرسل بينهما، وأخيرا وافق قائد التتر على ذلك، ودخل جنود العدو إلى البلد، ونكثوا بالعهد ، وقبضوا على الملك الصالح وقتلوه وقتلوا ولده علاء الدين ، وعلقوا رأسه على باب الجسر ، ثم قبضوا على مجموعة من الناس وقتلوهم ، وكان أحدهم محيي الدين بن زيلاق قال الصاحب بهاء الدين علي بن عيسى المعروف بالمنشئ الإربلي

وكـان صـديقا لـه: «جـاءت عسـاكر المغـل وحاصـرت الموصـل ، وأخـذ هـو وأولاده فـي شـعبان سـنة سـتين وسـتمائة فقتلـوا أجمـع ، فعـاد عـزه ذلا، وأصـبح شـماه مضـمحلا ، و بكـاه الأدب بدمعـة المـاطر ، وخلـت مـن أنسـه ربـوع البيـان فلـيس بهـا صـافر ، وإنـا لله وإنـا إليـه راجعـون ، وتبـاً لـدنيا تغـدر أبـدا بـالكرام وتسـقي بنيهـا كاسـات الحمـام ». وهكـذا ذهـب هـذا الأديـب شـهيدا وهـو فـي السابعة والخمسين من العمر.

شعره :

لم يصل إلينا ديوان ابن زيلاق ، وقد احتفظت المصادر جانبا كبيرا منه ، ولاسيما التذكرة الفخرية في ذيل مرآة الزمان ، و فوات الوفيات و عقود الجمان لابن الشعار الموصلي. كان ابن زيلاق شاعراً مجيداً ، يمتلك طاقة إبداعية عالية ، وقد التقى به المنشئ الإربلي ووقف على شعره واحتار نماذج كثيرة منه، وضمنها تذكرته الفخرية ، قال : « فارس مبارز في حلبات الأدب ، وعالم مبرز في لغة العرب ، بطبع أخذ الطاقة الهواء ، ورقة الماء ، كأنما ظهرت له أسرار القلوب ، فهو يتقرب إليها بكل محبوب ، شعره أحسن من الروض جاده الغمام ، وأزهى من اللؤلؤ الرطب زانه النظام ، وكلامه يشفي السقام ، ويطفئ الأورام ، وبديهته أسرع من الطرف ، وأحلى من ثمار المنى ، دانية القطف ... وكان بيني وبينه مكاتبات ومراسلات، فلما اجتمعت به وتجاذبنا أطراف الكلام ، وتجارينا في وصف النثر والنظام ، وعاشرته مدة فملأ سمعي ببدائع فرائده التي هي أحسن من الدر في قلائده، وطلبت أن يأذن لي في الرواية عنه ، فاعتذر اعتذار خجل ، وأطرق إطراق وجل.. وأذن بعد جهد شديد ، واعتذر ما عليه مزيد ... وذلك سنة سبع وخمسين وستمائة».

و كـان ابـن زيـلاق معجبـاً بمدينتـه الموصـل أيمـا إعجـاب، ويحبهـا مـن صـميم فـؤاده ، ويثنـي عليهـا، ويتغنـى بهـا ، ويميزهـا علـى غيرهـا مـن المـدن ، ويعـدها: الأم الـرؤوم التـي تحنـو علـى وليـدها وترعـاه ، فهـا هـو ذا يتناولهـا فـي قصـيدة - طويلـة - ويشـيد بهـا، ويشـير إلـى لطافـة جوهـا وطيبـة ، ويـذكر المواقـع الجميلـة فيهـا، ولا سـيما ديـر الأعلـى المطـل علـى نهـر دجلـة ، كـان الشعراء يلتقون فيه ويتطارحون الشعر ويتناشدون فيه، منها قوله:

ومحاسـن الحـدباء مشـرقة علـى ... كـل الـبلاد لهـا الفخـار الأفضـلُ
يـا حبـذا الشـرف المطـل وديرهـا ... المعـالي وطيـب فضـائه والهيكـلُ
ورواقـه و بهـاؤه وجـواره ... والعـيش فيـه والهـواء الأعـدلُ
وعبيـره يهـدي بطيـب نسـيمه ... وشـموله يبقـى فـدام الشـمألُ

وكانت تعجبه مدينة دمشق، ويتردد عليها، ويمكث فيها، ويستأنس بمحاسن أجوائها، ولطائف خمائلها ، وعجائب متنزهاتها ، وأطايب ثمارها و بدائع أصوات حمائمها..

وقدم لها وصفاً جميلا في شعر عذب رقيق ، يستهوي القلوب ، ويشرح الصدور، من ذلك قوله من قصيدة:

أدمشـــقُ لازالـــت تجـــودكِ ديمـــة ينمـــي بهـــا زهـــر الريـــاض ويونـــقُ
أهـــوى لـــك الســـقيا وإن ضـــن الحيـــا أغنـــاك عنـــه مـــاؤكِ المتـــدفقُ
أنَّـــى التفـــت فجـــدول متسلســـل أو جنـــة مرضـــية أو جوســـقُ

لقد حظيت مدينة دمشق - فيما أرى - أكثر من غيرها من الحواضر الإسلامية بقصائد شعرية ، في وصف مباهجها ومفاتنها وخيراتها. ولم يكن غريبا أن يشارك ابن زيلاق الموصلي قائليها في هذا الوصف ،هو يراها جنة وارفة الضلال ، تنساب في خلالها الجداول ، وتعبق في ربوعها فوائح الأزهار ، وتشدو على أفنان أشجارها الأطيار ، وقد أبدع في تصوير منظر الغصن الراقص بدغدغة النسيم وتصفيق الماء المنساب بخريره الساحر. ومنح ابن زيلاق للحب اهتمامه ، وقدم له زبدة شعره ، في ثوب نظيف بهيج ، خال من كل ما يشينه أو زري به ، مثل قوله في الحبيب الممتلئ حسنا وبهاء:

يـــا قمـــراً أصـــبحت محاســـنه تنهـــب ألبابنـــا وتســـترقُ
تجمعـــت فيـــك للـــورى فـــتن علـــى تـــلاف النفـــوس تتفـــقُ
طـــرف كحيـــل، ووجنـــة كســـيت حمـــرة دمعـــي ، ومبســـم يقـــقُ

وأغلب شعره في **الغزل** جاء على هذا النمط ، في صنعة خفيفة ، و موسيقى لطيفة ، يظهر فيه حبيبة بمظهر جذاب ، بهي الطلعة ، فيه جمال وسحر وفتنة ، يبهر الناظرين ويشدهم إليه ، كما في قوله :

بـــدا لنـــا مـــن جبينـــه قمـــر تضـــلُّ فـــي ليـــلِ شـــعرهِ الفكـــرُ
أحـــور يجلـــو الـــدجى تبسُّـــمه أســـمر يحلـــو بـــذكره الســـمرُ

وله شعر في **الخمرة** ووصفها ووصف ساقيها وجلّاسها ومن شعره يدعو في أبيات إلى شربها والتمتع بلذتها صباحا ومساء ، من يدي ساق رشيق وسيم المحيا:

اقـــضِ حـــق الصـــبوح قبـــل الصـــباح واكـــسُ راحاتنـــا بكاســـات راحِ
واجـــلُ جـــنحَ الـــدجى بجـــذوةِ نـــارٍ قـــدحتها الســـقاة بالأقـــداحِ

ولـه شـعرٌ فـي **الحكمـة** ، ولكنهـا حكمـة سـطحية لا عمـق فيهـا ولافلسـفة . فـي مثل قوله عن الدهر وحالاته وتقلب أحواله :

فالدهرُ لا يبقى على حـالاتِه فيـجورُ أحياناً وطوراً يعدلُ
صبراً فكلُّ ملمةٍ من بعـدها فـــرجٌ وكلُّ عسير أمرٍ يسهلُ